رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

سياسيون حول الرسول

المعارض.. الاشتراكى

• أبو ذر الغفارى •

obeikandl.com

obeikandl.com

هؤلاء رجال. كان لهم مع التاريخ الإنسانى مواقف مشهودة، ووقائع تسجل مسيرة إبداع إنسانى، ارتقت إلى مصاف المعجزات.. جاء هؤلاء حول ووراء رسولهم العظيم ثوارا ومحررين، ومنذ اللحظة الأولى لدعوة الرسول العظيم ﷺ برسالة التوحيد.. ويتصدر هؤلاء من مجموعة السابقين الأوائل للإسلام: المعارض الزاهد الاشتراكى.. والثائر الجليل.. وصاحب الفضائل (أبو ذر الغفارى).. ومن تولى أول مهمة خارج مكة لنشر الدين الجديد الذى كان غضا، مستخفيا..

كانت لحظات البداية قد شهدتها رمال مكة، وهى فى ذلك الوقت أشد قسوة من طغاة رءوس الشرك.. وتشتعل حرارتها تحت أشعة الشمس الملتهبة، ترمى بالشرر فى مناخ عام أكثر تحفزا فى مواجهة النبى الهادى إلى نور التوحيد.. وكان الأربعة أو الخمسة ـ فقط ـ من السابقين إلى الإسلام يتجنبون قدر ما يستطيعون جاهلية المتحفزين وعلى وجوههم قسوة ظاهرة وغلظة بادية، وهم الذين لم يكفوا عن الإساءة للرسول الكريم ﷺ، أو من يقترب منه داخل ساحة بيت الله الحرام.. كان طغاة الكفر يفرضون سطوتهم فى عنف وجبروت وقسوة!!

وفى هذه الأجواء كان فارس من قبيلة "غفار" والتى اشتهرت بالسطو والقرصنة الصحراوية و"قطع الطريق" على قوافل التجارة وغيرها.. كان الفارس قد أضناه البحث عن الرسول ﷺ صاحب رسالة التوحيد الجديدة، وقد دخل مكة متنكرا، كأنه عابر سبيل ضل طريقه، حتى لا يعلم أحد أنه يبحث عن محمد ﷺ.. وحتى علم بمكان الرسول ﷺ داخل الحرم الشريف.. فاقترب منه وقال: نعمت صباحا يا

أخا العرب.. فأجاب الرسول ﷺ : وعليك السلام يا أخاه.. قال أبو ذر الغفارى: أنشدنى مما تقول.. فأجاب الرسول ﷺ : ما هو بشعر فأنشدك، ولكنه قرآن كريم.. قال أبو ذر: أقرأ علىّ، فقرأ عليه الرسول ﷺ ، وهو يصغى، وبعد قليل هتف: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. وسأله النبى: من أنت يا أخا العرب؟ فأجابه أبو ذر: من غفار.. وابتسم الرسول ﷺ .. وقال: إن الله يهدى من يشاء..

....

وكانت المفاجأة التى ابتسم لها الرسول بعد أن اكتسى وجهه الكريم بالدهشة والعجب.. أن من أعلن إسلامه فى بدايات الدين الجديد هو أحد أبناء قبيلة صارت مضرب الأمثال فى السطو غير المشروع، وكان يقال بين العرب: الويل لمن يسلمه الليل إلى واحد من قبيلة غفار!! وقال أبو ذر: يا رسول الله، بم تأمرنى؟.. فأجابه الرسول ﷺ ـ وهو يهمس بالدعوة همسا فى ذلك الوقت ـ ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمرى..

وإذا كان "أبو ذر" قوالا بالحق، لا تأخذه فى الله لومة لائم.. فقد رفض العودة إلى قومه قبل أن يجهر بالإسلام فى بيت الله الحرام، وأن يتحدى كبرياء وجبروت وقسوة طغاة الكفر مجتمعين، وصرخ بأعلى صوته مرددا "أشهد ألا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدا رسول الله" وفى هذه الأجواء ،وفى هذا المناخ ،حيث يدور الحديث عن الإسلام همسا من الرسول العظيم ومن الأربعة أو الخمسة السابقون للإسلام.. وقد أحاط به رءوس الشرك، ويضربونه حتى يفقد وعيه.. وفى اليوم الثانى يكرر الجهر بالإسلام، ويواجه نفس المصير، وينقذه منهم العباس

عم الرسول ﷺ حين لفت انتباه قريش إلى أن هذا الرجل من غفار، وأن تجار قريش وقوافلهم تمر بالقبيلة، وهم يستطيعون أن يقطعوا على قوافلهم الطريق.. ويتركوه من بين أيديهم، ويعيد عليه الرسول أمره بالعودة إلى قبيلته حتى إذا سمع بظهور الدين عاد..

ويعود "أبو ذر" إلى قومه ،ويقرر عدم الانتظار، ويتولى أول مهمة خارج مكة للدعوة للإسلام.. رجل فى مهمة صعبة لنشر الإسلام.. أول مهمة إنسانية وسياسية للدعوة إلى حياة جديدة، وفكر جديد، ودين جديد، سوف يغير خريطة العالم.. ويحدّث عشيرته وقبيلته عن النبى الذى ظهر ويدعو إلى مكارم الأخلاق وعبادة الله وحده.. ويواصل المهمة بعزم وجهد لا يلين، حتى تدخل قبيلة غفار فى الإسلام ثم ينتقل إلى قبيلة أخرى "قبيلة أسلم "وتستمر مهمته حتى يدخل الإسلام القبيلة.

كانت أول مهمة فى نطاق العلاقات الخارجية.. خارج مكة لنشر دعوة نبى جديد ..

. . . .

. . . .

ويعلم رجل المهمات الصعبة، والداعية الكبير، أن رسول الله ﷺ قد هاجر إلى المدينة.. فيتقدم موكب حاشد من قبيلتى غفار وأسلم، وقد جاء بهما جميعا مسلمين ـ رجالا، ونساء، وشيوخا، وشبابا، وأطفالا ـ ويزداد رسول الله عجبا ودهشة، وينظر إلى قبيلة غفار، ويقول "غفار غفر الله لها" ثم إلى قبيلة أسلم وقال "وأسلم سالمها الله".. كانت هذه إحدى فضائل الرجل القوى الشكيمة، العزيز المنال، والذى أدى دوره فى

هذه المرحلة الصعبة وكما ينبغى.. وكما أراد للإسلام أن ينشر راياته فوق القبائل العربية..

وهكذا.. حين كان الرسول ﷺ فى مكة يهمس بالدعوة همسا، والمسلمون يتزايدون واحدا بعد الآخر.. وكان "أبو ذر" فى قبيلته يدعو قومه للتخلى عن أحكام وعادات الجاهلية وتقاليدها.. وهم الذين يسيرون سيرة الجاهلية.. يسرقون الحجيج قبل الإسلام، ويغيرون على القطيع من الجمال أو الأغنام فى عتمة الصبح.. كانت المهمة التى بدأها للتغيير، هى دعوة أهل البادية إلى الخروج من بداوة الجاهلية إلى نور الإسلام.. وكان الإسلام لايزال فى المهد وليدا.. دعوة للتغير فى بيئة عاشت سنوات من عمر التاريخ لا تعرف غير عادات وتقاليد قاسية، وتنحنى لأحكام الجاهلية كما تنحنى الجباه والعقول أمام الأوثان، وهى مجرد حجارة صماء!!

والتغيير المطلوب هنا ـ شامل ـ اجتماعى وأخلاقى.. تغيير يتصدى لفكر وعقيدة وثوابت من جاهلية البادية.. ويبدو أن الأمر ليس سهلا.. والمهمة شاقة.. لا يستطيع أن يتحملها إلا من امتلأ قلبه يقينا وعزما، ومن استولى الإيمان بالدين الجديد على شعوره ووجدانه وقلبه.. والمهمة بلغة العصر الحديث هى "مهمة سياسية "تمهد لنشر الإسلام ومولد الدولة الإسلامية فى المدينة.. وهى مهمة تحتاج إلى عقل مفكر، وجهد ثائر، ومهارة فى الإقناع بالتغيير.. تحتاج إلى صاحب رؤية سياسية تستشرف آفاق الدولة الإسلامية الجديدة..

وقد نجح أبو ذر الغفارى فى المهمة الصعبة..

ويرى عدد كبير من المستشرقين : أن الصحابى الجليل "أبو ذر" كان

من أوائل الاشتراكيين فى الإسلام، بسبب انحيازه وحبه للفقراء، وابتعاده عن مغريات السلطة، ومحاربتـه اكتناز الثروة، والدعوة إلى الإنفاق على المحتاجين، وتوفير سبل حياة كريمة لهم.. ومن قال بهذا من المستشرقين اعتـمد علـى سيرتـه الذاتيـة، وأنه كان زاهدا ويـدعو الناس إلـى الزهد "الاختيارى" حتى لا يكون حسابـهم على المال ثقيلا يوم الحساب، وألا يكون المال عقبة فى سبيل تيسير الحساب..

كان عطـاء "أبو ذر" أربعة آلاف دينارا فى الـسنة، وكان يختـزن ما يكفيه وأسرتـه العام كاملا، ثم يتصدق بما تبقـى عنده، ويفعل ذلك كل عام.. وحين عـرضت عليه إمارة العراق ـ بعد وفـاة الرسول ﷺ قال: "لا والله، لن تميلوا على بدنياكم أبدا".. وهو يسجل رؤيته وفلسفته فى الحياة بالقول: "أوصانى خليلى ﷺ بسـبع: أمرنى بحب المساكين والدنو منهم.. وأمرنى أن أنظر إلى ما هو دونى، ولا أنظر إلى ما هو فوقى.. وأمرنى ألا أسأل أحـدا شيئا.. وأمرنى ألا أخاف فـى الله لومة لائم.. وأمرنى أن أكثر من: لا حول ولا قوة إلا بالله"..

. . . .

ولقد لخـص الرسول ﷺ حياة الـصحابى الجليـل "أبو ذر" فى هذه الكلمات.. "ما أقلت الغبراء، ولا أظـلت الخضراء.. أصدق لهجة من أبى ذر".. وهكذا كان.. جهـر بالحق، وتحد للباطل، ومواجـهة معاقل السلطة والثروة.. والكـلمة العادلة التى لا تضل طريقهـا دفاعا عن دولة الإسلام الوليدة.. ودفاعا عن نقاء مستقبل المجتمع الإسلامى.

. . . .

كان الرسول الكريم ﷺ يرى ببصيرته الثاقبة عبر الغيب المجهول مستقبل أمته.. ويستشرف بالوحى السنوات القادمة.. وكان يشغله دور الصحابى النجيب، والثائر الجليل، أبى ذر الغفارى، حين يرى التكالب على السلطة والثروة، وحين تطل الدنيا بزخرفها الباطل وتوشك أن تفتن أصحابه.. فسأله النبى يوما: يا أبا ذر كيف أنت إذا أدركك أمراء يستأثرون بالفيء (الخيرات والثروات) فقال أبو ذر: إذا والذى بعثك بالحق لأضربن بسيفى!! فقال الرسول ﷺ، أفلا أدلك على خير من ذلك.. اصبر حتى تلقانى..

وكان لابد أن يتحقق ما قال به الرسول الصادق الأمين.. حين فتحت أبواب الدنيا بخيراتها وثرواتها، وحين طلت الفتنة برأسها فى عهد الخليفة الورع التقى الحيىّ "عثمان بن عفان".. وحين بدأت القصور والضياع والثروات فى دمشق تعلن عن بداية زمن الرفاهية والسلطة، زمن الأمراء الأغنياء، زمن الحكم والمال، السلطة والثروة.. وخرج "أبو ذر" إلى معاقل السلطة والثروة، يغزوها بمعارضته، معقلا، معقلا، والتف حوله الفقراء وأصحاب الحاجة من المساكين.. وأصبح زعيم المعارضة يهدد مصالح ذوى السلطة والثراء، وهو يصرخ فى وجوههم بشعار تحول إلى هتاف شعبى: وبشر الكانزين بمكاو من نار.. وانتقل زعيم المعارضة ـ الثائر الجليل ـ إلى الشام، إلى معقل معاوية بن أبى سفيان، وتستقبله حشود الجماهير.. ويقول غاضبا: "عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه".. ويقول صاحب أول مهمة سياسية فى بداية الدعوة: "الناس جميعا سواسية كأسنان المشط، وأنهم جميعا شركاء فى الرزق، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن

أميـر القوم ووليهـم هو أول من يجوع إذا جـاعوا، وآخر من يـشبع إذا شبعوا" . .

كيف إذن لو عـاش "أبو ذر" فى زماننا هذا. . زمن توحـش الفساد والمفسدين؟!

. . . .

. . . .

ويشـتد خطر زعـيم المعـارضة على الامـتيـازات الناشئـة وقتـئذ. . واستشـعر معاويـة بن أبى سفيـان "الخطر، بعد أن انسـاقت الشام وراء كلمات "أبـو ذر "والذى خلق رأيا عاما يلـتفت إلى حقوق الفـقراء فى ثروة الأغنياء، إلى العدالة الاجتمـاعية ،التى أرسى قواعدها الإسلام. . رأى عام لا يمكن تجـاهله. . ولكن "معاوية" يـعرف قدر "أبو ذر" ولا يقربه بسوء، ويكتب إلى أمير المؤمنين "عثمان بن عفان "يقول له: إن أبا ذر قد أفسـد الناس بالشام !! وما قـال به "معاوية" هو أقـرب إلى تهم الأمن الـسيـاسى فـى الزمن الجـارى بتكـدير الأمن الـعام، والإخـلال بالنظام!!

ويكتب أمير المـؤمنين لأبى ذر يستدعيه إلـى المدينة. . وقال له: ابق هنا بجانبى، تغدو عليك اللـقاح وتروح. . فأجابه أبو ذر: لا حاجة لى فى دنياكم. . وطلب من الخليفـة أن يأذن له بالخروج إلى "الربذة" فأذن له. . ولكنه ظل فى مـعارضته، يتصدى لأخـطاء الحكم ،وأخطاء المال، بالكلمة الصادقة الشجاعة، وليس بالسيف، ولكن بالمنطق والإقناع، وفيا لوصيـة رسول الله ﷺ (اصبـر حتى تلقـانى). . وظل مجاهـدا، يواجه الخطر قبـل أن يحيق ويدمر، ويخـشى على أصحابه مـن إغراء الإمارة،

ومن ضراوة الدنيا، وضراوة المال.. وحتى مات وحيدا فى فلاة "الربذة".

رضى الله عنك يا أبا ذر.. بادرت بمهمة خلق رأى يدعم الرسالة، ويمهد لميلاد دولة إسلامية.. ثم توليت زمام المعارضة، ثائرا يخلق رأيا عاما يتصدى لنزوات وجبروت السلطة والثروة.. والفساد والمفسدين.. وحتى رحلت وحيدا غريبا كما قال رسول الله ﷺ: "يرحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده "وصدق رسول الله.. وفى المشهد الأخير وهو يعالج سكرات الموت، كانت زوجته تبكى، فيقول لها: فيم البكاء، والموت حق؟! وتجيبه وهى تنتحب حزنا: أبكى لأنك تموت وليس عندى ثوب يسعك كفنا!! فيبتسم قائلا: اطمئنى، فإنى سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده فى نفر من أصحابه، يقول ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض، تشهده جماعة من المؤمنين".. وكل من كان معى فى ذلك المجلس مات فى جماعة وقربة، ولم يبق منهم غيرى، وهاأنذا بالفلاة أموت، وعليك الآن أن تراقبى الطريق، فستطلع علينا جماعة من المؤمنين، كما قال الصادق الأمين ﷺ.. ثم فاضت روحه الطاهرة المطمئنة، راجعة إلى ربها راضية مرضية.. وفى لحظات كانت قافلة من المؤمنين تقترب منهم، وعلى رأسها الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود، وحين يلقى نظرة على الجثمان، ويرى وجه أبى ذر، تفيض عيناه بالدمع ويقول: صدق رسول الله ﷺ حقا.. تمشى وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك..